سنة أولى - فلسفة الشرق محاضرة ثامنة

د. بشرى عباس

نشأة الفكر الفلسفي في الحضارة الفارسية القديمة:

المحاضرة الثامنة (٨)

تمهيد:

لقد ظهرت عدة ديانات لا سماوية (وضعية) في إيران، كان أبرزها الديانة الزرادشتية، ثم ظهرت الديانات الزرقانية والمترية والمانوية، ويمكن ايجاز أفكار ورؤى تلك الديانات.

- **أولاً: الديانة الزرادشتية:**

في الحقيقة تتبوأ الديانة الزرادشتية المقام الأول الذي يتوجب علينا البدء منه من أجل دراسة تاريخ الإيرانيين الفكري.

وعلى الرغم من تلك المكانة إلا أنه من الصعب تماماً تحديد مكان وزمان ظهور هذا الدين بشكل دقيق، وذلك لتعدد الروايات حول ظهور زرادشت، النبي الآري الذي ينسب إليه هذا الدين.

وذلك أن الباحثين كانوا مختلفين في تاريخ مولده فبينما أرجعه فريق منهم إلى أواسط الألف الثاني ق.م، فإن فريقاً آخر يضع ميلاده في أوائل القرن السادس ق.م، وهناك فريق ثالث يضع مولده في مطلع الألف الأول ق.م، وحوالي عام 900تقريباً.

ومهما يكن من أمر ولادته ووفاته فإنه قد نبغ مبكراً وأظهر نفوراً من العادات والتقاليد والسحر الذي كان منتشراً في عصره كما أحدث انقلاباً دينياً عميق الأثر على الحياة الروحية لإيران وللإنسانية جمعاء.

وفي الثلاثين من عمره وبعد أن قضى فترة طويلة من التأمل والتفكير ادعى أنه قد تلقى الوحي الإلهي من السماء فبدأ بعد هذا في موطنه وبين أهله محاولته الأولى لنشر ما تلقاه من الوحي إلا أن الفشل كان حليفه في هذه المرحلة وبعد عشر سنوات من تلك المحاولة توجه إلى الملك الآري المنحدر من الأسرة الكيانية كشتاسب فاعتنق الملك هذا الدين وأصبحت بذلك الزرادشتية الديانة الرسمية للدولة وبعد ذلك أخذت الشعوب القاطنة بين الهند شرقاً واليونان غرباً في اعتناقها وقد بلغت هذه الديانة أوجها في عهد الملك كورش الكبير (595-530 ق.م) أول ملوك الأسرة الأخمينية.

أما عن تعاليم هذا النبي الجديد فقد بدأت على شكل شرائع وأناشيد دينية يحفظها الأتباع ويرددونها في صلاتهم وفي مناسباتهم الدينة وقد ظلت هكذا إلى أن أمر الملك كشتاسب بكتابتها على جلود اثني عشر ألف بقرة وهكذا تم جمع كل المعتقدات الخاصة في نص واحد اطلق عليه اسم الأفستا.

ثم أمر بنسخ هذا الكتاب نسختين حرق الاسكندر إحداها عندما أشعل النيران في القصر الملكي وقد أخذ اليونان الجزء الآخر وترجموه إلى لغتهم وأخذوا منه الكثير من مواردهم العلمية.

إلا انه بعد أن عادت الديانة الزرادشتية الديانة الرسمية للدولة البرثية أمر ملك تلك الدولة بالاش الأول (51-78 ق.م) جمع النصوص المتفرقة من الأفستا وأعاد كتابتها (ما تجدر الإشارة إليه أنه لم يتم إعادة كتابة الأفستا بنفس اللغة التي دونت بها في عهد زرداشت أي اللغة الأفستية ولكنها كتبت هذه المرة باللغة البهلوية وبالأحرف الآرامية).

ثم كلف الملك أردشير الأول الذي قضى على الدولة البرثية وأسس الدولة الساسانية الهربدان هربد تنسر والذي كان من كبار رجال الدين بكتابة الأفستا باللغة الساسانية وبعد أن جاء سابور الأول أمر بشرح نصوص الأفستا وإضافة نصوص أخرى عليها.

وقد سميت تلك الإضافات باسم زند أفستا أي شروح الأفستا.

وفي الحقيقة لم يعد كتاب الأفستا يحتوي على المعتقدات الخاصة بالديانة الزرداشتية فحسب وإنما أخذ يتسع إلى أن أصبح موسوعة كبيرة بكافة علوم العصر في العهد الساساني.

كما تم تقسيم الكتاب إلى واحد وعشرين نسكاً، جرى توزيعها على ثلاثة أقسام وذلك بالتناسب مع عدد أحرف كلمة (إتها أهونويرو) أشهر صلوات الزرادشتين.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثامنة

أن تلك الأقسام لم يبقى منها اليوم إلا القليل.

سام الأفستا الساسانية:

قسم الأول: يضم الفصول المتعلقة بالعلم والفعل الإلهي.

لقسم الثاني: يضم الفصول المتعلقة بالعلم والفعل في العالم الأرضي.

القسم الثالث: يضم الفصول المتعلقة بالعلم بما بين العالم الإلهي والعالم الأرضي.

أما الأفستا التي بين أيدينا فتنقسم إلى ستة أقسام رئيسية وهي:

الكاتات، اليسنا، الوانديداد، اليشتات، الويسيرد، خردة أفستا.

- **ثانياً: الديانة الزواقية:**

ظهرت في القرن السادس ق.م وقد تأثرت بعدة مؤثرات بعضها بابلي والآخر هندي وإغريقي وقد كان نتيجة لهذا التأثر وجود أكثر من مدرسة فكرية: المدرسة القدرية التي تؤمن بأن العالم تحديد للزمان زورفان وترى بأن الموجودات البشرية دمى في يد القدر ولهذا تنكر مفهوماً أساسياً كان سائداً في الديانة الزرادشتية وهو مفهوم الإرادة الحرة كما ينكر آخرون أن يكون العالم قد خلق من عدم بفعل من أفعال الإرادة ويقبلون الحركة التطورية للمادة وهم لهذا ينكرون فكرة الإله الخالق عند زرادشت كما تنكر هذه الزرفانية المادة فكرة الثواب والعقاب المقبل في الجنة أو النار.

- **ثالثاً: الديانة المترية:**

يعتبر مترا إلهاً شمسياً في إيران وهو إله العقود المعاقب على الخطأ ذو الأحاسيس الألف الذي يحكم كسلطان عليم بكل شيء والمحارب المدافع الجيد التسليح والحافظ للنظام والحق المدمر لقوى الشر والغضب والجشع والتكبر والمماطلة وجميع الأشرار من الآلهة والبشر.

وعلى الرغم من كل هذه الصفات التي كان يتمتع بها الإله مترا إلا أنه لم يحظ لنفسه قط بعبادة مستقلة في إيران غير أن إيران كانت نقطة البدء التي انطلقت منها عبادته لتنتشر كعقيدة متميزاً شرقاً إلى الهند وغرباً إلى بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى.

ففي عام 60 ب.م وعن طريق المحاربين الرومان انطلقت هذه العقيدة إلى روما وفي القرن الثاني بدأت تنتشر في معظم أجزاء الإمبراطورية الرومانية بالإضافة إلى البلدان التابعة لها، واستمرت في الانتشار إلى أن وصلت إلى بريطانيا.

والديانة المترية ديانة خاصة بالرجال دون النساء ولها طقوس وأسرار سرية وقد دعت إلى سلام شامل على الأرض وقالت بالخلود وآمنت بالبعث والمحاسبة بعد الموت.

وكان من شروط الدخول في هذا الدين العماد والتطهير بالإضافة إلى اختبار الشجاعة وحلف اليمين.

أما اعتقادها الأساسي كما بين حفري بارندر فكان يدور حول التضحية بثور يقوم به مترا كعمل خلاق وكفداء في نفس الوقت فالمتعبد ينظر إلى الوراء حيث تمت التضحية في البداية عندما خرجت الحياة من الموت، ثم ينظر إلى الأمام فيجد أن التضحية النهائية هي التي سيقوم بها مترا عندما يكون على آخر الحيوانات أن يموت ليعطي للناس إكسير الخلود ويمكن تذوق هذه المأدبة الإلهية مقدماً عن طريق المشاركة في التناول المنظم لوجبة الخبز والخمر التي يمثل فيها الكاهن الإله مترا.

وقد كان المنتمون لهذه الديانة يسمون أنفسهم الأخوة ويسمون المسؤولون عن شؤونهم الآباء ورئيس الآباء بالرئيس الأعلى.

وقد بدأ تدهور هذه الديانة في عصر الإمبراطور قسطنطين في بداية القرن الرابع الميلادي وهو أول إمبراطور روماني يدخل المسيحية ثم عاد مترا ليصبح الإله الرئيسي في الإمبراطورية من جديد في عصر الإمبراطور جوليان في القرن الرابع الميلادي ثم عادت للانزواء من جديد في نهاية القرن الرابع الميلادي بعد الانتصار الكامل للمسيحية في عصر الإمبراطور ثيودسيوس في عام 395 م.

وقد أدى انتشارها في بلدان الإمبراطورية الرومانية إلى وقوع تأثير لها في الديانة المسيحية.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثامنة

- **رابعاً: الديانة المانوية:**

تنسب هذه الديانة إلى ماني بن فاتك وهو إيراني الأصل إلا أنه ولد في منطقة بابل ببلاد الرافدين عام 216 م.

وقد ترى على طائفة أبيه وهي طائفة غنوصية تدعى كما يقول ابن النديم المغتسلة وذلك نسبةً لطقوس الاغتسال بالماء التي كانت تمارسها.

وفي السنة الثانية عشرة من عمره جاءه التوم أي القرين وهو وحي من السماء فقال له اعتزل هذه الملة فلست من أهلها وعليك بالنراهة وترك الشهوات ولم يثن لك أن تظهر لحداثة سنك فلما تم له أربعة وعشرون سنة أتاه التوم مرة ثانية فقال له قد حان لك أن تخرج فتنادي بأمرك.

وقد اطلع ماني على الأديان السماوية والوضعية السائدة في عصره أي اطلع على المسيحية والمثرية والهندوسية وحاول من اطلاعه هذا أن يؤسس ديانة عالمية جامعة لكل الأفكار الدينية إلا أنه كان يفتقر إلى السند الديني لهذه الدعوة الجديدة ولهذا ادعى أنه الفارقليط الذي بشر به سيدنا عيسى أي أنه خاتم الأنبياء.

أما من ناحية تعاليمه فقد تركزت في الدعوة إلى الزهد والتقشف والعفة والتفرغ للعبادة والابتعاد عن الأشياء المادية من أجل نيل الخلاص والتطهر من الذنوب وقد كانت تعاليمه على العكس من تعاليم زرادشت الذي كان يدعو إلى النشاط والعمل والابتعاد عن الزهد، وقد بدأ ماني نشاطه التبشيري في بابل ثم في بقية مناطق الهضبة الإيرانية وذلك تحت حماية الملك الساساني شابور بن أردشير (241-272 ب.م) الذي سمح له بنشر تعاليمه بحرية في كل مكان من الإمبراطورية الفارسية.

إلا أن هذا الملك بتحريض من رجال الدين الزرادشتي، نفاه إلى الهند، وهناك اطلع على ثقافته، وتأثر بشكل خاص بالبوذية، واقتبس منها فكرة الزهد والتقمص.

وبعد وفاة الملك شابور، عاد ماني إلى غيران وتلقى الدعم من ابنه هرمز (...) الذي حكم لعام واحد فقط، فتولى بهرام (273 م) الحكم من بعده وأتبع مع ماني وأتباعه وذلك بتأثير من رجال الدين الزرادشتي وسياسة الاضطهاد والعنف و لم يكتف بهذا بل القى القبض عليه وأجرى له محاكمة صورية انتهت بإعدامه، وفي عام 276م أعدم ماني وعدد كبير من أتباعه ثم سلخ جلده وعلق على أحد أبواب مدينة جند سابور وقد عرف ذلك الباب بباب ماني.

وفي الحقيقة إن الديانة المانوية لم تمت بموت مؤسسها بل بقيت مستمرة إلى أن تلقت ضربتها الثانية بعد أن اعتنق الإمبراطور الثاني قسطنطين المسيحية وأعلنها ديناً رسمياً للدولة وقد نتج عن ذلك ملاحقة واضطهاد للمانويين أما ضربتها الثانية فجاءت من الديانة الإسلامية وذلك عندما قامت الخلافة العباسية في بغداد باستئصالها.

ومع ذلك فقد صارعت المانوية طويلاً عقب ذلك من أجل البقاء واستمرت جيوب لها قائمة هنا وهناك حتى مطلع العصور الحديثة.

وفي الحقيقة لقد تمخض عن هذا التاريخ الطويل الذي مرت به المعتقدات الفارسية مجموعة كبيرة من الأفكار والتصورات النظرية كان لها تأثير كبير على التطور الفكري للعالم أجمع.

وسنسعى إلى توضيح ذلك النتاج الفكري من خلال تناول التصورات الثلاثة الخاصة (بالألوهية والعالم والإنسان).

المبحث الأول:

تصور الألوهية في الحضارة الفارسية القديمة:

تمهيد:

انطلق المجوس في تصورهم للألوهية من القول بأن هناك أصلين اثنين يتقاسمان إدارة العالم، أحدهما يعد مديراً لشؤون الخير ويعتبر هذا مسؤولاً عن النفع والصلاح والعلة الأساسية لكل الحسنات والأفعال الطيبة، بينما الآخر يعد مديراً لشؤون الشر والضرر والفساد ويعتبر مسؤولاً عن كل السيئات والأشياء الخبيثة.

وفي حين رمزوا إلى المدبر الأول بالنور فإنهم رمزوا إلى المدبر الثاني الشرير بالظلمة.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثامنة

ى على الرغم من اتفاق معظمهم على القول بوجود هذين الأصلين المدبرين للعالم إلا أنهم كانوا يختلفون في تحديد البعد الزمني لكل واحد
ا وقد ترتب عن هذا الاختلاف أن انقسموا فيما بينهم شيعاً وفرقاً.

فض منهم قال بأن الخير قديم بينما الشر حادث، بينما الفريق الآخر ذهب إلى القول بقدم الأصلين.

ي الحقيقة إن أنصار الفريق الأول ذهبوا أبعد من هذا حيث ردوا ثنائية الخير والشر إلى وحدة جامعة، واعتبروا أن تلك الوحدة تمثل وجوداً
املاً وألوهية قائمة بذاتها مكتفية بنفسها، تسمو في عليائها وقالوا أن هذه الوحدة هي العلة الأولى التي انبثق منها النور والظلام، الخير والشر،
لا أنهم اختلفوا فيما بينهم في تفسير انبثاق الشر من تلك الألوهية.

قال بعضهم إن الله شك في شيء من الأشياء فحدث من ذلك الشك الشيطان.

وقال آخرون أن المبدأ الأصلي أي النور قد خشي قوة معادية وهذه الفكرة المفعمة بالخشية كانت سبباً في نشأة الظلام.

وفيما يلي سنوضح رأي كلاً من الديانة الزرادشتية والديانة المانوية وذلك من أجل تحديد طبيعة الحلول التي قدمتها لنا أعلام الفكر الفارسي.

- **أولاً: الألوهية في الديانة الزرادشتية:**

تأثر زرادشت بأحداده الآريين واستمد من أفكارهم مبدأين أساسيين كانا بمثابة القاعدة الأساسية التي انطلق منها في إقامة نظامه الفلسفي وهذان المبدآن هما:

1. أن لهذا العالم قانوناً يسير عليه وأن له ظواهر طبيعية ثابتة.
2. أن هناك نزاعاً وتصادماً بين القوى المختلفة أي بين الخير والشر، النور والظلمة، الخصب والجدب.. إلخ

ولكن على الرغم من تأثره هذا إلا أنه تجاوز ما قدسوه فهؤلاء قد قدسوا قوى الطبيعة ودعوا إلى عبادة العناصر الأربعة (النار ممثلة بكوكبيها العظيمين الشمس والقمر، الهواء، الماء، التراب) بالإضافة إلى عبادة آلهة خاصة (كأناهيتاه، وهاوما، ومترا).

وفي الحقيقة أن أساس عقيدة هؤلاء الأقوام يرجع إلى تقديس مجموعة كبيرة من الآلهة بعضها خير وبعضها الآخر شرير، أي أن الآلهة الأولى لا تقوم إلا بفعل الخير كالحياة والصحة والضوء بينما الأخرى منها علة الشر كالموت والمصائب وبالأخرى أن كل ما يصيب الإنسان من سوء إنما مرده إلى تلك الآلهة الشريرة ولذا فإنهم كانوا يعبدون آلهة الخير لفضلها وإحسانها ويعبدون آلهة الشر تحاشياً ضررها ولهذا صلوا لها وقدموا القرابين إليها.

وعندما جاء زرادشت قضى على تلك العبادات ودعا عوضاً عنها إلى عبادة الإله الواحد (أهورامزدا) فكان بهذا الداعي إلى مفهوم التوحيد في عصر اتسمت معطياته الفكرية بتعدد الآلهة.

والإله أهورامزدا من وجهة نظر زرادشت كان يمثل الخير الأعظم والموجود الأسمى خالق ومبدع الكون وبالتالي هو مصدر الفضيلة والاستقامة والخير ولكن لما كان الإله أهورامزدا على هذا النحو أي الخير المطلق الذي لم يصدر عنه إلا الخير فإن مشكلة تفسير وجود الشر في العالم كانت تترأس المشكلات الأخرى التي حاول زرادشت معالجتها.

أما الحل الذي قدمه زرادشت للإجابة على تلك المشكلة فمفاده القول بانبثاق روحين توأمين عن الإله الأزلي أهورامزدا وهما سبينتا مانيو وأنجرامانيو الذي سيدعى أهريمان فيما بعد وقد وهبهما أهورامزدا منذ البداية الحرية الكاملة التي ميزتهما عن مصدرهما وجعلت منهما كيانين مستقلين.

ونتيجة لتلك الحرية التي امتلكاها فإن سبيتامانيو يختار الحق والحياة ويثابر على فعل الخير ويسعى جاهداً إلى مرضات أهورامزدا بينما يختار أنجرا مانيو البهتان والموت ويثابر على فعل الشر.

يقول زرادشت: في البداية كان الجوهران توأمين في الفكر والقول والعمل فافترقا بين الأفضل والأسوأ فذو الفكر الخير اختار الصدق وذو الفكر السيء اختار الشر.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثامنة

وعلى هذا الأساس فإن التصور الذي قدمه زرادشت لا يقوم على التقابل بين قطبين إلهيين بتعبير آخر ان زرادشت لا يقول بوجود إلهين أحدهما للشر والآخر للخير بحيث يكون الإله أهورامزدا موجهاً بند له وعلة ذلك أن المعارضة من جهة أولى ظهرت إلى الوجود بين الروحين على المستوى الثاني كما أن الشيطان أهريمان من جهة ثانية لم يذكر قط في الأفستا مقابل أهورامزدا بل كان يذكر دائماً مقابل الفكر الحسن ومن جهة ثالثة أن المعركة بين روح الخير وروح الشر ستنتهي بالنصر النهائي لروح الخير وسيصبح الكون نتيجة لذلك حسناً وطيباً وخالياً تماماً من شوائب الشر.

ومن الضروري الإشارة إلى أن اللاهوت الزرادشتي المتأخر رفض اعتبار الإله أهورامزدا مسؤولا صعن مبدأ الشر في العالم وذلك على الرغم من إقراره بأن هذين الروحين توأمان فصار بهذا الإله أهورامزدا في الصراع أمام ممثل الشر أنجرامانيو (أهريمان).

وهكذا فإن الديانة الزرادشتية كانت في الأصل ديانة موحدة ثم تطورت إلى ديانة ثنيوية.

ويؤكد فراس السواح هذا بقوله: إن من أهم التحريفات التي أدخلها المجوس على العقيدة الزرادشتية أنهم جعلوا أنجرامانيو على قدم المساواة مع أهورامزدا ونظروا إليهما كخصمين متصارعين منذ البداية وبذلك تحول أهورامزدا من إله يسمو فوق الروحين المتنافسين اللذين صدرا عنه إلى طرف مباشر من الثنيوية الإيرانية.

والآن لابد لنا من التساؤل عن طبيعة الإله أهورامزدا لنتعرف على صفاته الأساسية في ديانة زرادشت.

في الحقيقة إن كلمة أهورامزدا مركبة من كلمتين وهما: (أهورا) وتعني الكبير و (مزدا) تعني الحكيم أو العاقل، وقد قدس هذا الإله في الهضبة الإيرانية قبل زرادشت.

وبالنسبة لزرادشت فإن الإله أهورامزدا هو الإله الأعلى رب الخليقة والحياة والمادة والروح وهو المحرك الذي لا شكل له ولا حد ولا نهاية الكامل الأبدي الكلي المسيطر على العالم بكل شيء هو الذي خلق الأرض والقبة الزرقاء (السماء) وأسس نظام الكون الأخلاقي والطبيعي.

بأمر هذا الإله كما يرى زرادشت يزداد القمر ويذوي وتتحدد مسالك الشمس والنجوم وهو الذي يدفع الريح فتجري سراعاً ويكسي جنات السماء بما يملأها من الضياء وهو خالق النبات والأنعام والبشر وبارئ أرواحهم وأجسادهم واهب البشر حرية الإرادة وهو كذلك الذي أوجد المحبة بين الأب وابنه ومنح الناس النوم واليقظة وغير ذلك من النعم الكثيرة.

وقد ورد اسم أهورامزدا في الأفستا أحياناً بشكل مفرد وأحياناً بشكل مركب ومن أسمائه: اللائق بالعبادة، العالم المطلق، رب الارباب الأعلى، سبب الأسباب، الفاضل.

يقول زرادشت: ابدأ باسم وحمد الذي كان ويكون وسوف يكون دائماً الإله واهب الخير الأحد في العالم الروحي واسمه أهورامزدا، الإله الكبير العارف، العادل، الحامي، المنير، الخير، الواهب.

وبالإضافة إلى هذه الأسماء التي كان يعرف بها كان هناك مجموعة من الكائنات الملائكية تحيط به وتعتبر رموزاً لطبيعته ووظائفه وهذه الملائكة لم تكن كما اعتقد الكثيرون أسماءً لآلهة مختلفة وإنما كانت كما يرى هنري توماس مظاهر مختلفة لإله واحد فالإله أهورامزدا كان شخصية واحدة ذو عدة وجوه.

وهذه الصفات او الكائنات الروحية هي: العقل الخير أو روح الطبيعة الخيرة، الروح الحق، التقوى والورع، الكمال، الخلود، وقد اضيف إليها فيما بعد الطاعة ويطلق على هذه الصفات أو الكائنات المقدسة اسم الخالدين المقدسين وهم المسؤولون عن حركة العالم حتى لا يفسد أو يذبل أو يتحلل.

وقد رمز زرادشت لهذا الإله الواحد الموجود في كل مكان بالماء والتراب فهذه الأشياء لم تكن إلا صفات أو جواهر للموجود الأزلي أهورامزدا وهذه ما يفسر لنا السبب في محاولاتهم الإبقاء على الماء نظيفاً طاهراً بعيداً عن النجاسة، يقول فارس عثمان في هذا: لقد قدست الزرادشتية مياه الأنهار والجداول والينابيع وحرمت الزرادشتية غسل الأجسام النجسة فيه لأنه طاهر مقدس ولذلك لم يحاولوا استخدامه إلا من أجل الشرب وري المزروعات فمن شأن هذه الأعمال أن تظهر مظاهر الخير على الأرض المزروعة لأن كل إعمار هو تجلي لأهورامزدا بينما كل خراب هو فعل أهورمان.

Scanned by CamScanner

المحاضرة السابعة

وكذلك الأمر بالنسبة للتراب فلا يجوز تدنيسه بدفن الموتى مباشرةً فيه كما لا يجوز ترك الأرض الزراعية بوراً كذلك عدت الزراعة والعمل الزراعي أفضل الأعمال عند أهورامزدا.

وتعتبر النار أهم رمز من رموز الإله أهورامزدا وفي الحقيقة إن زرادشت لم يعبد النار و لم يدعوا إلى عباداتها وإنما كانت بمثابة الرمز الحسي للإله أهورامزدا في العالم يقول زرادشت: يا خالق الخلق يا خالق العالم الذي لا مثيل له يا واهب كل شيء ومختفي عن كل عين عن هذا النور الذي أقف أمامه هو نور خلقك وهو قبلتي التي بها أرجو أن اقترب من نور حقيقتك الذي يفوق كل نور.

وقد ربط زرادشت بين النار وأعمال الإنسان وبين أنه:

1. كما يسمو لهيب النار على الأعلى فإن من واجبات الإنسان أن يسمو ويرتقي بفكره وأعماله إلى أعلى حيث الروحانية المقدسة وبالتالي عليه ألا ينجذب للأهواء والرغبات السفلية.
2. كما تمنحنا النار الضوء والحرارة وتنير لنا الدروب وتتحول إلى رماد فإن على الزرادشتي أن يتحلى بروح التضحية والإيثار وعليه كذلك أن يعبد طريق الخير أمام الآخرين ويبدد الشر في نفسه وفيمن حوله.
3. كما يحافظ الزرادشتي على النار موقدة وموقد المعبد ويمنع بالتالي إخمادها كذلك عليه تأجيج نار قلبه المقدسة بمزيد من الورع والتقوى وعدم إخماد تلك النار بالرغبات المادية السفلية.

وبالنسبة لزاردشت وأتباعه هناك خمسة أنواع للنار وهي:

- **برزى شوه:** أي النار في بيوت النار أو تلك التي ينتفع بها الناس في حياتهم.
- **زهو فريانه:** أي النار التي تسري حرارتها في جسم الإنسان والحيوان.
- **أوروازيسته:** أي النار التي تسري حرارتها في النبات.
- **زيستا:** أي النار التي تحدث منها الصاعقة بين الغيوم.
- **اسبنيشته:** أي النار التي تنير الجنة تحت أقدام أهورامزدا.

وقد بلغ تقديس الزرادشتيين للنار على أن جعلوا لها بيوتاً عديدة للعبادة وفي تلك البيوت كانوا يؤدون الصلاة ويقدمون النذور ويقيمون حفلاتهم الخاصة مثل الزواج والأعياد وبكل ما له علاقة بحياة الإنسان.

وإذا كانت النار الملتهبة رمزاً من رموز أهورامزدا فإن الدخان هو رمز من رموز أهريمان الذي ألقى بنفسه على النار لإطفائها فامتزجت بعض عناصر خلقه مع النار فأدى ذلك على إثارة الدخان منها ولذا لا يجوز السماح بتحويل النار إلى رماد ينبعث منه الدخان.

وتتميز الديانة الأصلية التي بشر بها زرادشت بغياب المعابد والمذابح فلقد منع زرادشت تشييد أماكن خاصة للعبادة أو وضع الصور والتماثيل لأهورامزدا أو لبقية الكائنات المقدسة السماوية لأن الله موجود في كل مكان ويمكن التوجه إليه بالصلاة في أي مكان طاهر.

وهكذا خلت المراكز الحضارية للملكة الأخمينية من المعابد.

أما بالنسبة للصلوات الخمسة التي فرضها زرادشت على أتباعه فقد كانت تقام في أماكن مفرزة للعبادة في الهواء الطلق ومزودة بموقد للنار المقدسة لكن أردشير الثاني (401-395 ق.م) خرج عن هذا التقليد وكان أول من بنى المعابد الضخمة ووضع صوراً للكائنات السماوية.

إلا ان عمله هذا قد قوبل بالمعارضة من قبل فريق من الكهنة ولا سيما أنهم قد رأوا فيه انتهاكاً للمعتقدات الدينية ولذا بدأ هذا الفريق بإقامة معابد خاصة لهم تتصدرها شعلى للنار المقدسة بدلاً من تماثيل الآلهة وبذلك ظهرت معابد النار في إيران وشيئاً فشيئاً بدأت نار المعابد تكتسب قدسية خاصة بعد أن كانت رمزاً للألوهية الخالقة ولهذا وصف أتباع الديانة الزرادشتية بعبدة النار.

وفي الحقيقة لقد أدى نشوء تلك المعابد على تغيرات عميقة في الديانة الزرادشتية فقد انتشرت المعابد الدينية الضخمة والباذخة ونشأت طبقة جديدة من الكهنة المتفرغين لطقوس من النار وقد عرفت هذه الطبقة من الكهنة تاريخياً باسم ماجي وباليونانية ماجوس وبالعربية مجوس.

Scanned by CamScanner

أهم قائمة بمصطلحات الفصل الرابع (نشأة الفكر الفلسفي في الحضارة الفارسية القديمة):

- *أبراج الصمت:* طريقة للتخلص من جثث الموتى لوضعها فوق الأبراج لتلتهمها الطيور الجارحة عند الزرادشتية.
- *بارنامر خضري:* المعتقدات الدينية لدى الشعوب.
- *دبشير الأول:* هو واحد من الأشراف الأقطاعيين في مقاطعة بارس (فارس) بجنوب غوان قد قام بثورة كبرى ضد الدولة البرسية عام 224 ب.م ودخل طيفسون عاصمة البلاد وأسس دولة جديدة عرفت بالدولة الساسنية نسباً إلى ساسان أحد أجداد أردشير.
- *أفستا:* لقد فسر بعض الباحثين معنى كلمة الأفستا، أو كما يقول المؤرخين العرب الأبستاق بالأصل والمتن وذلك استناداً إلى اشتقاقها من كلمة (upsta) التي تعني الأساس والأصل والثبات لقد فسرها آخرون بالمعرفة حيث يمكن أن تكون مشتقة من الجذر الهندي (ved) أي يعرف.
- *أهرمان:* إله الشر أو الشيطان أو ابليس في الديانة الزرادشتية.
- *أهورامزدا:* مكون من ثلاثة كلمات معناها (انا الوجود الخالق) إله الخير والإله الخالق في الزرادشتية.
- *أفستا:* الأفستا الصغيرة هي مختارات من الأفستا تشمل ما يتوله الزرادشتي في صلاته وأعياده واحتفالاته الدينية وكذلك النصوص التي يجب قراءتها في المراسم الاجتماعية كالزواج والعذاء أو عند لبس السدرة مراسم التعميد كما يشمل هذا القسم أيضاً التقويم الزرادشتي وأسماء الأشهر والأيام.
- *الدايتا:* هي الروح الخاصة بالإنسان أو بشكل أصح الذات الخاصة وهي صورة الروح في الحياة الدنيوية فإذا كانت الروح صالحة فإن الدايتا تظهر للروح في صورة صبية جميلة متألقة لها خمسة عشر عاماً أما إذا كانت الأعمال شريرة كانت الدايتا قبيحة وتسمى الدايتا عن الفرافاشي أي الروح الإلهية المجردة التي يودع لها المؤمن لتهديه إلى الصراط المستقيم حيث أن الفرافاشي تعود بعد الموت إلى مقرها الأصلي ولا تقدم حساباً على الأعمال وإنما هي الدايتا التي تقدم حساباً عن أعمالها الدنيوية وفي نهاية المطاف تصل الدايتا مع كتابها وتقود الروح نحو جسر جينفات، لينتهي الإنسان نحو نعيم أو جحيم وذلك حسب خياره الذي أجراه في الحياة الدنيوية
- *الديفا:* تجدر الإشارة إلى أن زرادشت قد استعار هذه التسمية من الديانة الهندو إيرانية القديمة فقد ساد الاعتقاد بين الآريين في وجود طبقتين أو فئتين من الكائنات الخارقة للطبيعة، الطبقة الأولى تسمى أسورا في الهندية وهي تقابل أهورا في غوان والطبقة الثانية تسما ديفاس وهي تقابل ديفاس في غوان وقد كانت كلمة أسور تطلق على كائن شيطاني في الهند وكلمة ديفا تطلق على الكائن الإلهي إلا أن الوضع قد انعكس تماماً في غير ان وربما حدث ذلك بتأثير من زرادشت فقد اكتسبت كلمة ديفا معنى شيطاني وأخذت كلمة أهورا معنى إلهي.
- *زرادشت:* نبي الإيرانيين القدامى قال أنه تلقى وحياً من أهورامزدا إله الخير ليبشر بالحق.
- *الزرادشتية:* الديانة التي أسسها زرادشت في إيران في القرن السادس ق.م ذات ملامح ثنائية يرى البعض أنها ديانة توحيدية وأن أهرمان ليس إلهاً وإنما هو الشيطان أو ابليس.
- *زروان:* إله الزمان اللامتناهي عند الزرفانية وهو أيضاً إله القدر الذي يحدد مصير البشر.
- *الزرفانية:* صورة معدلة من الزرادشتية ظهرت في فارس خلال الفترة الساسانية (من القرن الثالث إلى السابع الميلادي) عندهم أن الزمان اللامتناهي الأزلي غير المخلوق وهو مصدر كل شيء.
- *الصلوات الخمسة:* لقد فرض زرادشت على اتباعه أن يؤدي في اليوم خمسة صلوات:
  1. صلاة الصبح (كاه هاون)
  2. صلاة الظهر (كاه رفتون)
  3. صلاة العصر (كاه أزيرن)

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثامنة

4. صلاة الليل (كاه عيوه سرتيوم)
5. صلاة الفجر (كاه أشهين) وهناك صلوات خاصة تقام في مراسم خاصة بعضها يطول وبعضها يقصر ويتخللها قراءات وأدعيات من الأفستا.

- *الفراڤاشي:* أرواح هادية للبشر ولجميع الأشياء الطبيعية عند الزرادشتية.
- *الگاثات:* هي أقدم ما كتب من الافستا من إنشاد زرادشت نفسه وهي جزأ من الياسنا ولكنها تذكر وحدها لأهميتها ولقد كتبت شعراً وتختلف في اسلوبها وألفاظها عن بقية الأفستا والگاثات تضم سبع عشرة قطعة من أصل اثنين وسبعين قطعة تشكل الياسنا زيادة (معن) وآخرون.
- *ماني:* هو ماني بن فاتك مؤسس الديانة المانوية وكلمة ماني فارسية تعني الفريد أو النادر.
- *المانوية:* ديانة فارسية أسسها ماني وهي مزيجاً من الزرادشتية واليهودية والمسيحية ثنائية تؤمن بوجود إلهين الخير والشر.
- *الإله متراء:* إله آري الأصل كان يعبد في إيران بوصفه إله القعود والاتفاقات وهو محارب قوي جبار قتل الثور المقدس وخلق من دمه الكائنات الحية وهو الذي يساعد أهورامزدا في حربه ضد أهريمان عند الزرادشتين.
- *المجوس:* أتباع زرادشت مصطلح يوناني اشتق منه كلمة السحر magic.
- ميتوغ: هي حالة من الوجود المثالي غير المتحقق في شكل مادي وبقابلها
- جيتيتع: وهي حالة الوجود المادي المتحقق في أشكال ذات قوام وخواص والحالة الثانية خير من الحالة الأولى لأنها انتقلت بالكون من حالة الهيولى إلى حالة الثبات والنظام وهذا ما يميز خلق الله عن خلق الشيطان وقدرة الله عن قدرة الشيطان الذي لا يستطيع منح ما يخلقه القوام والمادة ويخرج به إلى حيز الوجود الفعلي.
- هاوما: اسم شراب كحولي مسكر يسمى في بلاد الهند سوما وهو اسم لكائن وسيط بين الآلهة والبشر والبعض الآخر يعتقد بأنه إله يجب أن يعبد وقد عبد فعلاً هذا الشراب بالفعل ووضعوا عدة أناشيد للتغني باسمه.
- الهمشتكان: أي مكان وسط حيث لا ثواب ولا عقاب وهو يخص أولئك الذين تساوت سيئاتهم مع حسناتهم أمام عملية الوزن التي قام بها سروش وراشنو فهؤلاء يستمرون في وجود باهت كظل شبحي بلا إحساس.
- الوندیداد: تعتبر الجزء الفقهي من الأفستا الزرادشتية وفيها الكثير من التشريعات والقوانين التي تحكم الحياة الفردية والاجتماعية وما يناله الإنسان عن أفعاله من ثواب أو عقاب وكلمة داد نفسها توحي بما يقصد بكلمة قانون كما تذكر أيضاً ما يحصل من شر على هذه الأرض نتيجةً للخراب الذي يحدثه الشيطان وما يعم من خير نتيجة زراعتها واستغلالها.
- الويسپرد: هو أقصر أجزاء الأفستا الزرادشتية تشتمل تراتيل وأناشيد في تمجيد الشرف والعفة والطهارة وكل ما هو مستحسن وفيه ذكر للآلهة والملائكة والعالم الخير والسماء وما فيها والأرض وما عليها كما يشتمل وصفاً لكيفية العبادة والصلاة واوقاتها في الليل والنهار وما يطلب من الزرادشتي أن يقوم به في الأعياد والاحتفالات الدينية.
- الياسنا: هي أناشيد عبادة فيها شكر لأهورامزدا وثناء على مخلوقاته الطيبة وهي مليئة بإطراء الطهارة والثناء على الصدق والجمال والحرية وذم النذالة والكذب والغضب والقبح وفيها ايضاً وصف للإنسان الذي يقدس مزدا لأنه صاحب الفكر الحسن والقول الحسن والفعل الحسن أنه الذي يبتعد عن الأنذال ولكذابين وفي آخرها يبدو من يعبد مزدا طالباً السلام والصلح بين المخلوقات.
- البشتات: من أطول أجزاء الأفستا الزرادشتية الموجودة ولا تبدو واحدة في الأسلوب أو في طريقة النظم ويبدو أكثرها مضطرباً في وزنه ولغته وهي تضم مدحاً للخالق أهورامزدا كما تضم كثيراً من الأساطير والحكايات ووصفاً لبعض الحروب الإيرانية.

انتهت المحاضرة

Scanned by CamScanner

بشأن اعتبار المحاضرة التاسعة
(٩)
لسنة الأولى
فلسفة الشرق

الأسطورة والواقع

إن عملية البحث عن /الفكر التأملي/ عند الأقدمين تدفعنا إلى الاعتراف بأن ما تملكه ليس إلا نزر يسير مما يستحق أن يسمى /فكراً تأملياً/ فالعبارات التي توحي بالتحليل المنظم المتماسك قليلة جداً.

فالفكر في الشرق الأدنى القديم يبدو ملفوفاً، بالخيال، ويمكن اعتباره مختلطاً بالوهم والخرافة، إلا أن ذلك لا يعني أن الفكر التأملي لديها منظماً، فالتأمل طريقة حدسية من طرق الإدراك تكاد أقرب إلى الرؤيا، لكنه لا يعني أنه مجرد ابتعاد للأرض عن الواقع، أو تجاهل لهذا الواقع أو التهرب من مشاكله، فالتأمل يسمو على التجربة، وذلك لأنه يحاول تصير التجربة وتنظيمها وتوحيدها، وذلك من خلال الفرضيات التي يضعها، وهذا يعني أن الفكر التأملي يحاول وضع ضوابط لفوضى التجربة.

وبذلك فإن الفكر التأملي يتميز عن التأمل المجرد بكونه لا ينفك أبداً عن تجربة الحياة. وما يتميز به فكرنا التأملي المعاصر أنه أضيق حدوداً مما كان عليه في أي عصر مضى وذلك بسبب مجموعة القيود التي وضعها العلم، فالفكر التأملي ينحصر مجاله في أيامنا بالإنسان وطبيعته ومشكلاته وقيمه ومصيره كونه لا يستطيع أن يجعل من نفسه موضوعاً علمياً لنفسه، فحاجته إلى السمو على فوضى التجارب تؤدي به إلى البحث عن فرضية ميتافيزيقية قد تشكل له حلاً لمشاكله.

بالعودة إلى الفكر الشرقي التأملي يتبين لنا حقيقتان:

أولاً: نجد أن التأمل لدى الإنسان القديم كانت لديه إمكانية للتطور والنمو فهو لم يحدده بحث علمي منظم عن الحقيقة.

ثانياً: نجد أن مملكة الطبيعة، ومملكة الإنسان لم تكن الواحدة منهما تتميز عن الأخرى فالإنسان القديم كان يرى نفسه جزءاً من المجتمع، والمجتمع كشيء مثبت في الطبيعة لم ينظر إلى نفسه كمجابه للطبيعة، لهذا فهو يحاول فهمها بأساليب مختلفة، فالتجارب الطبيعية ينظر إليها بوصفها تجارب إنسانية، والتجارب الإنسانية ينظر إليها بوصفها تجارب كونية، وبذلك فنحن نتميز عن الشعوب القديمة، فالإنسان الحديث يتميز عن الإنسان القديم بموقفه من العالم المحيط، فالإنسان العلمي يشير إلى عالم الظواهر عادة /بهو/ بينما يشار إلى هذا العالم

Scanned by CamScanner

المحاضرة التاسعة

عند الإنسان القديم /أنت/ والفرق بين /أنا وأنت/ هي كما يلي:

عندما يعين الإنسان هوية شيء ما فهو فعال، بينما عندما يفهم الإنسان أو الحيوان بوصفه رفيقاً له فهو جوهرياً منفعل مهما نجم عنه من فعل، لهذا فهذا النوع من المعرفة يعرف بالنوع العاطفي، بينما المعرفة العلمية تكاد تخلو من العاطفة.

ثم أن هناك فرقاً مهماً آخر بين الشيء /الهو/ يمكن دائماً أن يقرن علمياً بأشياء أخرى وأن يبدو كجزء من سلسلة أو مجموعة، وعلى هذا النحو يصير العلم على رؤية /هو/ ولهذا يستطيع العلم أن يتفهم الأشياء والحوادث إذ تتحكم بها قوانين تجعل بالمقدور التنبؤ بسلوكها في ظروف معطاة بيد أن الأنت فريد فذ إن للأنت شخصية التي لا سابقة لها. ولا يمكن التنبؤ بها إنها وجود لا يعرف إلا بمقدار ما يكشف عن نفسه، إضافة إلى أن الأنت ليست موضوعاً للتأمل والفهم بل يحكمه الكثير من العواطف والانفعالات .

العالم لا يبدو للإنسان البدائي جماداً أو فارغاً بل زاخراً بالحياة وللحياة فردية فكل ظاهرة تجابه الإنسان من قصف ورعد وظل وحجر يؤذيه عندما يتعثر به وهو فيمك بالقنص لا كهو بل كـ /أنت/ فالأنت لا يتأمل فيه هذا الإنسان بانفصال ذهني بل يجربه كحياة تواجه حياة.

من الممكن أن الإنسان القديم قد أدرك بعض المشاكل الذهنية وتسأل لماذا وكيف، ومن أين، وإلى أين . إلا أنه من غير المتوقع العثور عند الإنسان القديم أي تأمل مصاغ في شكل ذهني فالذي تعرفه الآن والذي يفترض مسبقاً وجود خطة ذهنية منطقية دقيقة فالفكر في الشرق القديم لا يعمل مستقلاً عن ذاته، فالإنسان القديم يجابه كل تجربة بالأنت فالإنسان القديم ينظر إلى كل التجارب المحيطة به كحوادث فردية فالإنسان القديم كان يقصص الأساطير عن الحوادث بدلاً من يعمل على تحليلها . فقد نعلل هطول المطر نحن بعد جذب طويل بأن ظروف مناخية توفرت وأدت إلى المطر أما الإنسان القديم البابلي والمصري فكان ينظر إليها بوصفها واسطة من الطير العملاق /إمدوذمود/ إذ جاء لإنقاذهم فكسا السماء بمالي جناحيه من سحب الزوابع السوداء والتهم /نور السماء/ الذي قد أحرق الزرع بأنفاسه .

لم يكن هدف الإنسان القديم عندما يروي مثل هذه الأسطورة تسلية السامعين كما لديهم لم يبحثوا بطريقة موضوعية عن تأويل مفهوم للظواهر الطبيعية فهم يسردون حوادث هم جزء منها قد تهدد حياتهم فكانوا يشعرون شعوراً مباشراً بالصراع بين قوتين . الواحدة تعادي الحصاد الذين يعتمدون عليه والأخرى رهيبة ولكنها كريمة لجاءتهم الزوبعة وأنقذتهم . فالتصوير الشعري الذي في الأسطورة ليس مجرد سرد لقصة رمزية بل هو أسلوب اختاره

Scanned by CamScanner

المحاضرة التاسعة

البدائي بعناية للفكر المجرد ليفسر بها ما يحدث حوله من أحداث .
هذا ويتجلى الجانب اللاعقلي في الأسطورة بوجه خاص عندما نتذكر أن الأقدمين لم يكتفوا بسرد أساطيرهم كالقاصيص تحمل الأخبار بل متلوها رواتياً قائلين أن فيها قوة خاصة تتنشط بالإلقاء الجهوري .
وخير مثال معروف على التمثيل الدرامي للأسطورة تناول القربان المقدس ففي كل احتفال برأس السنة كان البابليون يعيدون تمثيل /مردوك/ على قوى الفوضى في أول أيام السنة الجديدة عندما خلقت الدنيا فكانوا ينشدون في هذا الاحتفال /ملحمة الخليقة/ ومن الواضح أن البابليين لم ينظروا إلى قصتهم عن الخليقة كما ننظر نحن إلى نظرية /لابلاس/ . وبذلك يمكن تلخيص خواص الأسطورة من خلال التعريف التالي: الأسطورة ضرب من الشعر يسمو على الشعر بإعلانه عن حقيقة ما، ضرب من التعليل العقلي يسمو على التعليل لأنه يبقي أحداث الحقيقة التي يعلن عنها ، ضرب من الفعل أو الممكية المراسمية لا يجد تحقيقه بالفعل نفسه .

منطق الفكر الميثوبي

لاحظنا أن الأفكار لدى الإنسان البدائي لم تكن مستقلة بذاتها بل شملت موقفاً غريباً من عالم الظواهر سميناه مجابهة الحياة بالحياة. فتصنيف الأحكام الذهنية نادراً ما ينطبق عليها التعقيد ومع ذلك فإن كلمة منطق كما استعملناها لها ما يبررها لقد كان الأقدمون يعبرون عن فكرهم العاطفي بلغة السبب والنتيجة، وفسروا الظواهر بلغة الزمان والمكان والعدد وهو أقرب إلينا مما يظن البعض، لقد كان بوسعهم أن يعللوا منطقياً ولكنهم نادراً ما أرادوا ذلك. لأن الانفصال الذي يحتمه الموقف الذهني المجرد لا يتفق وتجربتهم للواقع. والباحثون الذين يبرهنون على أن للإنسان البدائي أسلوباً للتفكير سابقاً للمنطق، قد يشيرون إلى ممارساته السحرية أو الدينية ناسين أنهم بذلك يطبقون تصنيفاً فلسفياً وضعه /كانت/، هناك فروق جوهرية مابين الفكر الميثوبي والفكر الحديث. هذه الفروق بينهما ناجمة عن الموقف والمقصد العاطفيين لا كما يسمى بالعقلية الما قبل منطقية. فالتميز الأساس في الفكر الحديث

Scanned by CamScanner

المحاضرة التاسعة

هو مابين الذاتي والموضوعي. وقد بنى الفكر العلمي على هذا التميز خطة نقدية تحليلية يعيد بها الظواهر الفردية شيئاً فشيئاً إلى أحداث نموذجية خاضعة لقوانين كونية. وبذلك يخلق هوة في اتساع مستمر بين إحساسنا بهذه الظواهر وبين الفكر التي تمكننا من فهمها. فنرى الشمس تطلع وتغيب غير أننا نفكر في حركة الأرض حول الشمس، وحتى لو عجزنا أحياناً عن إثبات هذه الآراء إلا أننا نأخذ بها كوننا نستطيع إثبات مقدار من الموضوعية أكثر مما تقدمه لنا حواسنا لكن عند الإنسان البدائي لا يوجد أي مجال لمثل هذا التحليل النقدي لإدراكاتنا فإن البدائي يعجز عن الإنسحاب من حفرة الظواهر لذا فإن التمييز مابين الذاتي والموضوعي لا يعني بالنسبة للإنسان البدائي شيئاً.

فالبابليون كالإغريق كانوا ينشدون هدى الآلهة بأن يقضوا الليل في مكان مقدس أملاً في وحي ينزل عليهم في الحلم . وهناك قراءة أيضاً قالوا في سجلاتهم إن بعض ما قاموا به من أعمال حفتهم عليه الأحلام.

ولم يكن الإنسان القديم يميز ما بين الأوهام والأحلام والرؤية العادية ولم يكن هناك تمييز مابين الأحياء والأموات.

فكان استمرار حياة الموتى وعلاقتهم بالناس أمراً مسلماً به لأن الموتى جزء من الحقيقة التي لا شك فيها.

كما استخدم البدائي الرموز الكثيرة التي نستخدمها نحن، ولكنه لا يستطيع أن يتصور أنها ترمز إلى الآلهة أو القوى وإنها في الوقت ذاته منفصلة عنها. أنها تربط بين شيئين متشابهين ولكنها منفصلة عنهما . فيمكن أن يكون الاسم أو خصلة الشعر أو الظل بديلاً للإنسان لأن الإنسان البدائي في أي لحظة أن خصلة الشعر مرتبطة بحضرة الإنسان.

ومن الأمثال على التمام الرمز والمرموز إليه معاملة اسم الشخص كجزء جوهري منه. كأنه بديل له فهناك عدد من الأقداح الفخارية نقش عليها أسماء ملوك /المملكة الوسطى/ كذلك أسماء القبائل المعادية لهم في فلسطين وأسماء حكامها، وأسماء بعض المتمردين وكانت تحطم في احتفال ديني مهيب.

كما أن ماهو خيالي يحسب موجوداً بالفعل فالصفات والفكرة المجردة قد تتجسد أيضاً وخير مثال على هذا الانصراف إلى تجسيد فكرة الموت البدائية فالموت ليس فعل الاحتضار ومفارقة الحياة إنه ضرب من الحقيقة المجسدة <u>فإني لصوص الأهرام المصرية نقرأ:</u>

قبل أن تتكون السماء

Scanned by CamScanner

المحاضرة التاسعة

قبل أن يتكون الناس

قبل أن تولد الآلهة

قبل أن يتكون الموت

وتمثل هذه العبارات على لسان جلجامش

جلجامش أين رحت تجول

إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها

لأن الآلهة عندما خلقت الإنسان جعلت

الموت نصيبه ولمسكت بأيديها عنه الحياة

فالحياة تقابل الموت، وهذا يؤكد على أن الحياة نفسها تعتبر بلا نهاية وليس ما ينهيها إلا تدخل ظاهرة أخرى /الموت/.

أما فيما يخص موضوع السببية، فالعلم يعود بفوضى الأحاسيس إلى نظام تحدث فيه أحداث نموذجية بموجب قوانين عامة. فالتحول من الفوضى إلى النظام هي فرضية السببية والفكر البدائي طبعاً يدرك العلاقة بين السبب والنتيجة ولكنه لم يدرك ما نراه من سببية تعمل كالقانون دون أي هوى شخصي.

فنظريتنا السببية لا تضع الإنسان البدائي لما في تأويلها من صفة لا شخصية ولن تقنعه لعموميتها فنحن نفهم الظواهر، لا بما يجعلها فريداً بل بما يجعلها مظاهر قوانين عامة بيد أن القانون العام لن ينصف كل حدث بما فيه من صفة فردية خاصة.

وهذه الصفة الفردية هي بالضبط ما يحس به الإنسان القديم أكثر من أي شيء آخر فالإنسان البدائي يتساءل لماذا يموت هذا الرجل هكذا في هذه اللحظة، ففي ملحمة جلجامش كان يموت شيئاً محسوساً جعل من نصيب البشر وكان دواؤه الحياة الخالدة ونجد هذه الثنائية نفسها في تأويل المرض أو الخطيئة، فعندما يساق كبش الضحية إلى الصحراء محملاً بخطايا الجماعة من الجلي أن هذه الخطايا تعتبر شيئاً محسوساً، وتفسر النصوص الطبية القديمة الحمى مثلاً بأنها تنجم عن دخول مواد /حارة/ في جسم الإنسان فالفكر الميثوبي يجسد الصفة ثم يزول حدوثها تارة كسبب وتارة كنتيجة، والحرارة التي تسبب الحمى قد يكون عدو /شاءها/ قد نلج جسمه على شكل روح شريرة.

والأرواح الشريرة ماهي في الغالب إلا الشر نفسه مجسداً ومزوداً بقوة إرادة قد تعين هذه الأرواح.

Scanned by CamScanner

المحاضرة التاسعة

وصورة /ز ع/ ممتطياً بقرة السماء توضح ضرباً من التفسير السببي اللاتأملي يقتنع به الفكر الميثوبي أما فيما يخص المكان فالملاحظ أن العلم الحديث حاول أن يعين أن يعين أسباباً ذات علاقات وظيفية معلوية بين الظواهر الطبيعية فالمكان يظهر على أنه صورة من العلاقات والوظائف فنحن نفترض أن المكان غير محدود، مستمر متجانس وهذه الصفات لا نعرفها بمجرد الإدراك الحسي إلا أن الفكر البدائي يعجز عن استخلاص فكرة المكان من تجربة المكان، فصوره للمكان لدى الإنسان البدائي هي صور مظاهر محسوسة تشير إلى مواقع لها لون عاطفي وقد تكون مسالمة أو معادية، وخارج نطاق التجربة الفردية، تشعر الجماعة بوجود أحداث كونية معينة تضفي على بعض أجزاء المكان معاني خاصة، فالنهار والليل يقترنان بالشرق والغرب، بالحياة والموت.

ينمو الفكر التأملي ويتطور حين يتناول المناطق التي لا تدركها التجارب الحسية المباشرة كالسموات أو العالم السفلي كما نرى في علم التنجيم في بلاد مابين الرافدين الذي أعطى نظاماً واسعاً من العلاقات والترابط بين الأجرام السماوية والأحداث الفضائية وبين المواقع الأرضية.

يجمع المصريون على القول إن الخالق خرج من مياه الهيولى، وأقام رابية صغيرة من الرابسة يقف عليها، وهذه الرابية التي بدأت الخليقة عليها، اتفق للعرف على أنها في معبد الشمس.

إذ يعتبر معظم المصريين الإله الشمس خالق الكون، وكانت أسماء المعابد الكبرى تنص صراحة على أنها الرابية /الإلهية الأولى/.

كما جعل المصري القبور الملكية أيضاً مطابقة للرابية الأولى، فالموتى ولاسيما الملوك يولدون في العالم الآخر، فليس من مكان يعد بالفوز في عبور أزمة الموت أفضل من الرابية الأولى مركز قوى الخلق حيث بدأت الحياة المنظمة في الكون لذا فإن قبر الملك يبنى بشكل هرم والهرم هو التشكيل الفني للرابية الأولى .

ونحن في العصر الحديث لا نقبل هذا المفهوم للمكان، فالمكان بالنسبة لنا مستمر ومتناسق، وكل موقع معين دون لبس أو غموض.

وعلى ذلك كانت الحياة الأولى التي خرجت منها الحياة كلها تعد موجودة في عدة أماكن وهي تعد ضرورية لإكمال صورة الكون المصرية وكانت تعتبر أيضاً مياه العالم السفلي الذي على الشمس والموتى أن يعتبروه وهي تحتوي على كل إمكانية للحياة. وهي أيضاً مياه فيضان

Scanned by CamScanner

المحاضرة التاسعة

النيل السنوي التي تحيي الزرع وتجدد خصب الحقول.

والفكرة الميثوبية عن الزمان أخذتها عن المكان، أنها كيفية ومجسمة لا كمية ومجردة . أنه لا يفهم بوصفه لحظات متماثلة لحظات متماثلة الكيفية. فالإنسان القديم لم يعرف فكرة الزمن التي نستخدمها في الرياضيات والفيزياء. فهم يتخيرون الزمن في توقيت وإيقاع حياة الإنسان، وحياة الطبيعة، وكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان الطفولة، المراهقة، النضج، الشيخوخة هي زمن ذو صفات خاصة به، والانتقال من مرحلة إلى أخرى أزمة يستعين الفرد فيها باتخاذ الجماعة معاً في المراسيم الملائمة للميلاد أو البلوغ أو الزواج أو الموت. وهذا الزمن الذي يراه البدائي، كسياق لمراحل حياتية متباينة الجوهر. كانت ظواهر الزمن في الطبيعة، من تعاقب الفصول وحركات الأجرام السماوية تعتبر في البدء دلائل على خطة حياتية مماثلة لخطة حياة الإنسان ومرتبطة بها. إلا أنها لم تكن تعتبر ظواهر طبيعية، فإذا تغير شيء ما كان لتغيره سبب، والسبب كما رأيناه إرادة، فنرى في سفر التكوين مثلاً أن الله قطع عهداً للمخلوقات الحية بأن الفيضان لن يغمر الأرض ثانية، ومادامت الأرض باقية فإن البذر والحصاد، والحر والبرد، والصيف والشتاء، والليل والنهار، لن تزول . أي أن نظام الزمن ونظام حياة الطبيعة يهبهما إله، فالشمس في كل صبح تهزم الظلام والهيولى كما هزمتهما يوم الخليقة الأولى، وكما تهزمهما كل عام في يوم رأس السنة.

إن هذا التطور الدرامي للطبيعة الذي يرى في كل مكان صراعاً بين الإلهي والشيطاني، بين قوى الكون وقوى الفوضى أن هذا لا يجعل من الإنسان مجرد مشاهد يتفرج، فانتصار القوى الخيرة يهمه جداً لأن صالحه يعتمد عليها اعتماداً كلياً، فعليه أن يقتحم الصراع إلى جانبها، نعرف مثل هذه المعارك الصورية في احتفالات عديدة في مصر تدور حول هزيمة الموت، الميلاد الجديد أو البعث وكان الإنسان أيضاً ينظم أمور حياته أو على الأقل حياة المجتمع المنتمي إليه، بحيث تنسجم مع الطبيعة.

انتهت المحاضرة

Scanned by CamScanner